

تفسير ابن كثير

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ^ط قَوْلُ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ

وقوله : (فاختلف الأحزاب من بينهم) أي : اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد

بيان أمره ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصممت

طائفة - وهم جمهور اليهود ، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية ، وقالوا : كلامه هذا

سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله . وقال آخرون : هو ابن الله ، وقال آخرون :

ثالث ثلاثة . وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله . وهذا هو قول الحق ، الذي أرشد

الله إليه المؤمنين . وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون ، وابن جريج ، وقتادة ، وغير

واحد من السلف والخلف . قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله : (ذلك

عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون) ، قال : اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم

أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم ، فامتروا في عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو الله

هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء - وهم

اليعقوبية . فقال الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل أنت فيه ، قال : هو ابن

الله - وهم النسطورية . فقال الاثنان : كذبت . ثم قال أحد الاثنان للآخر : قل فيه . قال :

هو ثالث ثلاثة : الله إله ، وهو إله ، وأمه إله - وهم الإسرائيلية ملوك النصارى ، عليهم

لعائن الله . قال الرابع : كذبت ، بل هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ، وهم

المسلمون . فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا ، فاقتتلوا فظهر على المسلمين ، وذلك

قول الله تعالى : (ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس) [آل عمران : 21] وقال

قتادة : وهم الذين قال الله : (فاختلف الأحزاب من بينهم) قال : اختلفوا فيه فصاروا

أحزابا وقد روى ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، وعن عروة بن الزبير ، وعن بعض أهل

العلم ، قريبا من ذلك . وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم : أن

قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم ، فكان جماعة

الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفا ، فاختلفوا في عيسى ابن مريم ، عليه السلام ،

اختلافا متباينا ، فقالت كل شُرذمة فيه قولا فمائة تقول فيه قولا وسبعون تقول فيه قولا

آخر ، وخمسون تقول فيه شيئا آخر ، ومائة وستون تقول شيئا ، ولم يجتمع على مقالة

واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم ، اتفقوا على قول وصمموا عليه ومال إليهم الملك ،

وكان فيلسوفا ، قدمهم ونصرهم وطرد من عداهم ، فوضعوا له الأمانة الكبيرة ، بل هي
الخيانة العظيمة ، ووضعوا له كتب القوانين ، وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعا كثيرة ،
وحرّفوا دين المسيح ، وغيّروه ، فابتنى حينئذ لهم الكنائس الكبار في مملكته كلها : بلاد
الشام ، والجزيرة ، والروم ، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشرة ألف
كنيسة ، وبنّت أمه هيلانة قمامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي تزعم اليهود
والنصارى أنه المسيح ، وقد كذبوا ، بل رفعه الله إلى السماء . وقوله : (فويل للذين كفروا
من مشهد يوم عظيم) تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله ، وافترى ، وزعم أن له
ولدا . ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلما وثقة بقدرته عليهم ; فإنه الذي لا
يعجل على من عصاه ، كما جاء في الصحيحين : " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه
لم يفلته " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى
وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) [هود : 102] وفي الصحيحين أيضا عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له
ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيههم " . وقد قال الله تعالى : (وكأين من قرية أملت لها وهي

ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير) [الحج : 48] وقال تعالى : (ولا تحسبن الله غافلا عما

يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) [إبراهيم : 42] ولهذا قال

هاهنا : (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أي : يوم القيامة ، وقد جاء في

الحديث الصحيح المتفق على صحته ، عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن

محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن

الجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل "